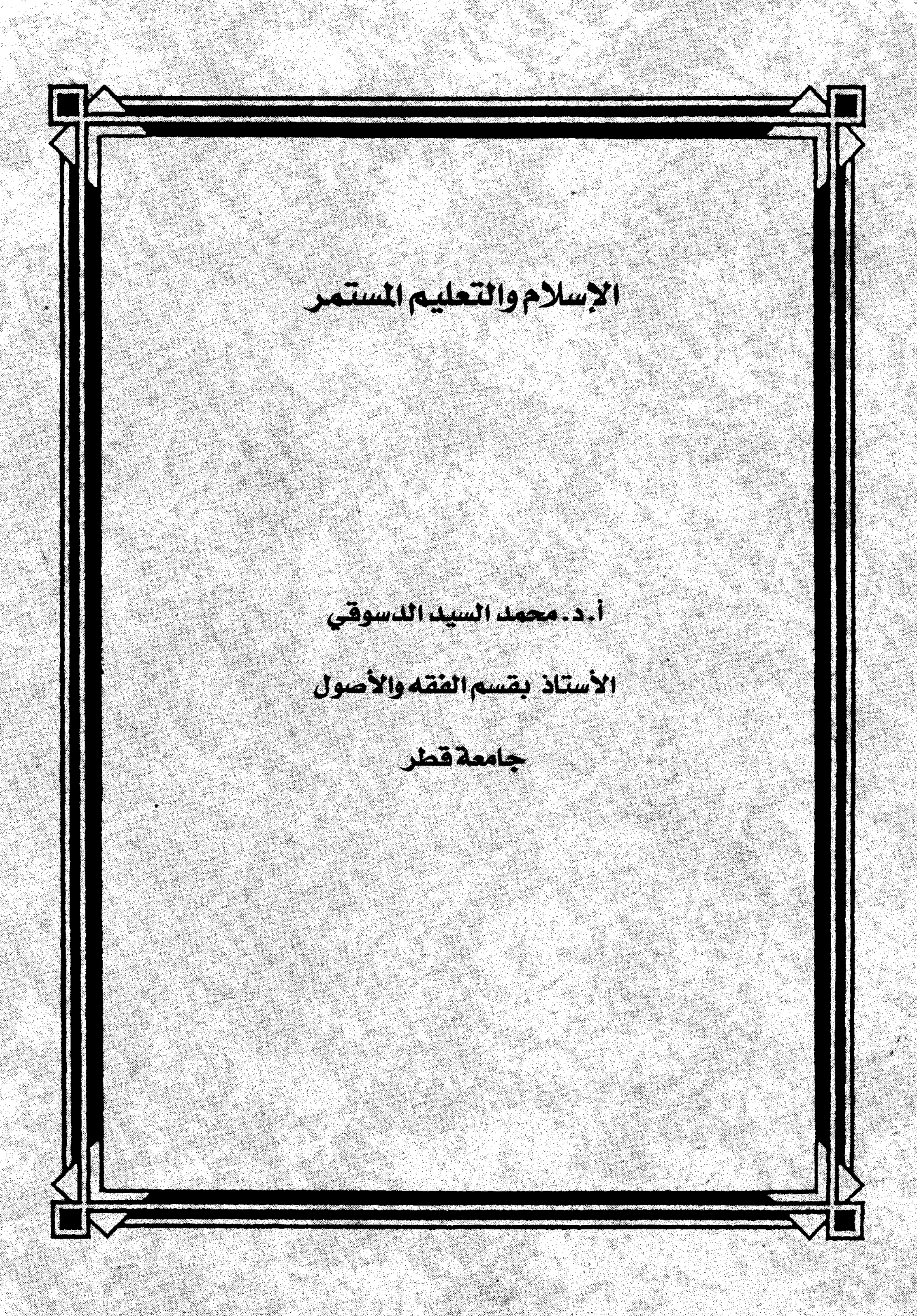


الإسلام والتعليم المستمر

أ.د. محمد السيد الدسوقي

الأستاذ بقسم الفقه والأصول

جامعة قطر

عرفت الدراسات التربوية منذ نحو نصف قرن مصطلح التعليم المستمر، فقد كتبت فيه أبحاث ومؤلفات وعقدت من أجله ندوات، ومؤتمرات ، وصدر عن هذه الندوات والمؤتمرات قرارات وتوصيات تبتغيا كلها أن يصبح التعليم مدى الحياة. .

إن البشرية واجهت بعد الحرب العالمية الثانية متغيرات متلاحقة في العلم والثقافة والاجتماع والاقتصاد، وقد فرضت هذه المتغيرات على علماء التربية أن يعيدوا النظر في المناهج التقليدية للتعليم، حتى يمكن أن يتحقق التوافق بين النظم التربوية ومتطلبات الحياة، ومن ثم شاع ذلك المصطلح للتعبير عن توجه جديد في التربية يستجيب لمتغيرات العصر التي لا تعرف التوقف.

ولا يعني ظهور مصطلح التعليم المستمر منذ نحو نصف قرن وكثرة الحديث عنه أن مضمونه كان مجهولاً أو لم يعرف التطبيق قبل العصر الحاضر، فالإنسان -وقد وهبه الله نعمة العقل، وفضله بها على سائر الكائنات، ولهذا كان مكلفاً ومسئولاً- منذ درج على هذه الأرض كان يسعى دائماً ليحيط علماً على نحو ما بالبيئة التي يحيا فيها، وما كان يقنع بما يتحصل عليه من معرفة، وإنما كان يحرص على الاستزادة من العلم، وإن لم تكن لديه في هذا مناهج مقننة أو مدارس منظمة، حتى يستطيع أن يتغلب على كل ما يتهدد حياته من مخاطر.

وبمرور السنين والقرون نمت معرفة الإنسان وتطورت ثقافته، فكانت الحضارات التي ظلت لبعضها آثار تشهد عليها حتى الآن، وكانت المنجزات العلمية التي يسرت الانتفاع ببعض ما سخر الله للإنسان في الكون.

لقد عاشت البشرية عصوراً متباينة من حيث المستوى الحضاري، طوعاً

لمستوى التعليم والبحث العلمي، ويعد العصر الحاضر عصر الحضارة المادية التي لم تعرف البشرية مثيلاً لها عبر تاريخها الطويل، فمنذ بداية القرن الميلادي العشرين تقدم الأبحاث والدراسات العلمية في مختلف الفروع كل يوم الجديد من المبتكرات والمخترعات، وإن كان بعضها يهدد الحياة الإنسانية بالدمار الشامل، ولا يكفل للناس كافة حقوقهم المشروعة في الحياة الكريمة؛ لأن تلك الحضارة المادية عادت الدين وتنكرت للقيم الفاضلة، وعبدت الشهوات، واحتكرت العلم، واتخذته سبيلاً للبغي وامتهان الضعفاء وسرقة ثروات الشعوب..

وفي العقود الأربعة الأخيرة من هذا القرن جدت تطورات علمية وتقنية مذهلة، وتكررت محاولات غزو الفضاء، وحدث ما سمي بثورة المعلومات في شتى المجالات، ولهذا رأى علماء التربية أن أساليب التعليم المتوارثة لم تعد كافية لمواجهة تلك التطورات، فكانت الدعوة إلى التعليم المستمر أو التعليم مدى الحياة.[1]

تعريف التعليم المستمر:

على الرغم من أن مصطلح التعليم المستمر يفهم منه لأول وهله أنه التعليم الذي يتصف بالاستمرارية، ولا يقتصر على مرحلة من العمر[2]، أو ينحصر في سنوات دراسية محددة، فإن الباحثين في هذا التعليم قد تفاوتت آراؤهم بعض التفاوت في تعريفه، أو تحديد مفهومه، ويرجع هذا التفاوت إلى زيادة قيد أو بعض القضايا المتعلقة بالتعليم المستمر، أو

---

(١) انظر التعليم مدى الحياة والمدارس والمناهج في البلاد النامية ص١٧ وهو تقرير عن الحلقة الدراسية الدولية التي عقدت في هامبورج في ديسمبر ١٩٧٤م، ترجمة وطبع ونشر المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي، سرس الليان سنة١٩٧٩.

(٢) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي للأستاذ علي بركات، ص٢١ ط. دار الفكر العربي، القاهرة سنة١٩٨٨.

الاهتمام بتحديد وحصر وظائف ومهام هذا التعليم[1] في تعريف دون آخر.

ومن التعريفات التي وضعت للتعليم المستمر أنه كل الطرق التربوية المتاحة للإنسان منذ باكورة حياته أو منذ طفولته حتى شيخوخته[2].

ويقدم أحد علماء التربية الغربيين تعريفاً للتعليم أو التربية المستمرة اصطلح عليه المختصون في منظمة اليونسكو عام٦٦/١٩٦٧ ومضمونه أن التربية المستمرة في صيغتها العامة، مفهوم يتضمن الإعداد الشامل للإنسان طبقاً لمسلك تربوي يستمر طوال حياته، ويستدعي نظاماً كاملاً يتصف بطبيعته المتسقة المتوحدة، ويقدم الوسائل المناسبة التي تستجيب لتطلعات كل فرد التربوية والثقافية بالشكل الذي يتوافق مع قدراته[3].

وهذا التعريف أخذ عليه أنه لا يحدد مضمون التربية المستمرة تحديداً قاطعاً، وأنه تطرق إلى بعض القضايا التي تدخل في منهج هذه التربية ومع هذا تبنى مجلس التعاون الثقافي التابع للمجلس الأوربي هذا التعريف[4].

التعليم المستمر وتعليم الكبار:

إذا كان تعليم الكبار مثل التعليم المستمر له جذور تمتد في أعماق التاريخ، فهي قديمة قدم الإنسان[5]، فإن الاهتمام النظري بتعليم الكبار من

---

(١) انظر: تعليم الكبار للدكتورمحمود قمبر، ص٢٧، ط. دار الثقافة الدوحة سنة ١٩٨٥.

(٢) علي بركات ، مرجع سابق، ص٣٣

(٣) د. محمود قمبر ، مرجع سابق، ص٢٩

(٤) المصدر السابق

(٥) انظر: تعليم الكبار ومحو الأمية في دولة قطر، للدكتور عبدالغني النوري والأستاذ يوسف الملا، ص٣١ ط. دار الثقافة ،الدوحة.

حيث التأصيل له في تشريعات وقوانين سبق التعليم المستمر، فقد أدت النهضة الصناعية الغربية إلى الاهتمام بالعمال لا من حيث محو أميتهم فحسب، وإنما من حيث التدريب المهني والتوجيه نحو الصناعات المستحدثة وتأهيل العاملين، وترقيتهم أيضاً، وقد دخلت مؤسسات وهيئات ذات اختصاصات مختلفة للعمل في مجال تعليم الكبار، وأقامت مدارس متنوعة له كما أن الدول اهتمت بهذا التعليم، وقدمت مساعدات فعالة لمؤسساته العاملة، وكانت تتدخل في مجال التنظيم والإشراف، فصدرت القوانين التي تحدد في تفصيل سياسة تعليم الكبار، ومسئوليات كل من الدولة والهيئات في مجالاته المتعددة، ونصت بعض هذه القوانين على عدم التحاق أي دارس بأنشطة هذا التعليم ما لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره[1].

وأصبح تعليم الكبار مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين جزءاً رئيسياً في سياسة التعليم المستمر، ولهذا اتسع مجاله، وتضاعف الاهتمام به[2] عالمياً، وقد جاء في التوصية الثانية عشرة من توصيات لجنة منظمة اليونسكو لتطوير التعليم عام ١٩٧١ ما يلي: «يجب أن يكون النهوض بتعليم الكبار داخل المدرسة وخارجها في مقدمة أهداف السياسة التعليمية في السنوات العشر القادمة[3]».

ورفعت بعض الدول شعارات تدعو المتعلمين سواء أكانوا في سلك التدريس، أم في غيره للمساهمة في تعليم غيرهم، وبخاصة تعليم الكبار، ومن بين هذه الشعارات «الجار يعلم جاره، وإن كنت متعلماً فعلم غيرك، وإن كنت خلاف ذلك تعال فتعلم».

وقد أشادت العديد من الدول والمنظمات الأممية بفكرة هذه الشعارات

---

(١) انظر: تعليم الكبار للدكتور محمود قمبر، ص١٩٨، ١٩٩.

(٢) انظر: تعليم الكبار ومحو الأمية، ص٤٥

(٣) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي، ص٢٦٦

وعدتها فكرة رائدة في مجال تعـميم المعرفة بين الناس، ودعت إلى الأخذ بها وتطبيقها في كل دول العالم[1].

أهمية التعليم المستمر:

لا يعني التـعليم المستمـر أن يظل الإنسـان طوال عـمره في مـجلس التلمذة يتلقى عن غـيره المعرفة، وإنما يعنـي خلق وعي تعليمي لدى الناس كـافـة منذ نعـومـة أظـفـارهم بحيث يظلون طلاب عـلم في كل مـراحل حياتهم[2] ، وبذلك يصبح التعليم المستمر مشروعـاً حضارياً عاماً يسهم فيه الجميع، كل بما هو ميسر له، وما يتمتع به من الطاقات والقدرات، فالأمم تنهض وتقوى بالعلم والمعرفة، وتتخلف وتضعف بالجهل والأمية. .

إن طوفـان المعارف يتـدفق ليل نهـار، وإذا كانت المـعرفـة في العقـود الأخيرة من القـرن العشرين يتضـاعف حجمها كل ثمـاني سنوات فإن هذا المدى سينخفض إلى النصف في أوائل القرن الحادي والعشرين، وهذا أمر يفرض المتابعة الواعية لكل جـديد من العلم والمعرفة، حتى يتسنى للإنسان أن يواجه تحديات العـصر وتطوراته العلمية، ولا يتـخلف عن ركب التقدم والابتكار.

إن المؤهلات العلمية التي تمنحـها الجامعات في كثير من التـخصصات قد لا تعبر بعد عدة سنوات من الحصول عليها عن مستوى علمي له صلته بالواقـع وأثره في الحـيـاة، وذلك للكم الـهـائـل من الأفكار والنـظريات

(١) انظر: تعليم الكبار والتربية المستمرة للدكتـور الجيلاني جبريل ص١١٥ منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس - ليبيا.

(٢) على أن الحصول على العلم والمعرفة لا يكون بالدراسة النظامية أو بالقراءة وحدها، وإنما تسهم التربيـة غير المقـصودة التي تتم عن طريـق مؤسـسات ومنظمـات غير متـخصـصة في العـمل التربوي في النمـو المعرفي لـلفرد وفي تعلمـه أشيـاء جديدة باستـمرار، وهذه المؤسسات مـثل الإذاعة المسمـوعة والمرئية والمسارح ودور الخـيالة والمعارض الفنية ومعسـكرات العمل التطوعي، فضلاً عما يكتسبـه الإنسان في بيته من خبرات معرفية مختلفة.

والاختراعات التي تجد كل يوم، ولعل هذا ما حمل مؤسسة الطاقة الذرية في فرنسا إلى الغاء ما تمنحه من دبلومات لخريجيها بعد مرور خمس سنوات عليها، ولا تعترف بهذه الدبلومات مرة أخرى إلا بعد امتحان جديد يثبت متابعة صاحب الدبلوم للتطورات العلمية.[1]

فالتعليم المستمر -إذن- ضرورة، و له أهمية بالغة، لأنه يربط العلم بالعمل، والكتاب بالحياة، والمدرسة بالمجتمع، ويجعل من كل خبرة حية موضوع دراسة وتعلم[2]، إن هذا التعليم يحقق للإنسان الحياة التي تليق بكرامته، ومكانته في الكون، فهو به يصبح مفكراً يكتشف باستمرار المزيد من الأشياء التي لم يكن يعرفها من قبل، كما أنه بهذا التعليم يحسن التصرف والتفاعل مع الآخرين كعضو كامل في المجتمع، وهذا ما أشار إليه التقرير الذي أصدرته اليونسكو سنة ١٩٧٢ وأعده بعض خبراء التربية تحت عنوان «تعلم لتكون» وقد جاء في هذا التقرير «إننا نقترح أن تتبنى البلدان المتقدمة والبلدان النامية على السواء مبدأ التربية المستمرة كفكرة رئيسية في سياستها التربوية في السنوات القادمة»[3]. وفي سنة ١٩٨٧م عقد في القاهرة المؤتمر القومي لتطوير التعليم، وقد أصدر توصياته التي بلغت أكثر من مائة توصية[4]، ودعت التوصية الثالثة منها إلى«الأخذ بفلسفة التعليم المستمر مدى الحياة بحيث ينعكس في جميع المراحل والتبعيات التعليمية، ويشكل لدى كافة المتعلمين اتجاهاً أساسياً، إذ هذه الفلسفة أصيلة تعود إلى تراثنا الإسلامي، ويتبناها العالم اليوم، فضلاً عن أنها تشكل ضرورة ملحة ليتمكن كل فرد من ملاحقة التطورات والتغيرات السريعة المتلاحقة سواء في جوانب المعرفة أو شتى نواحي الحياة.

---

(١) انظر: تعليم الكبار للدكتور قمبر ص ٣٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٣٨.

(٣) التعليم مدى الحياة، ص٢١.

(٤) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي للأستاذ علي مبارك، ص٢٦٨.

فلا مراء في أهمية وحتمية التعليم المستمر لمواجهة تحديات العصر وتحقيق آمال المجتمعات والأفراد في حياة سعيدة متقدمة، فالمجتمعات العصرية التي تصنع الحضارة وتحقق التنمية هي مجتمعات لا تحتكر المعرفة فيها صفوة متميزة، بل تأخذ فيها الجماهير حظها من العلوم والآداب والفنون بما يمكنها من المشاركة باقتدار في بناء مجتمع الديمقراطية والرفاهية.

وإذا كان التعليم المستمر ضرورة في المجتمعات التي لها نصيب في صنع الحضارة المعاصرة فإن هذا التعليم في المجتمعات النامية التي تعاني من مشكلات التخلف العلمي والتكنولوجي والاقتصادي أكثر ضرورة[1].

ولا يسمح المجال بتفصيل القول في كل ما يتعلق بالتعليم المستمر من حيث وسائله وأهدافه، ومناهج تطبيقه، وما صدر بشأنه من قوانين وتوصيات ولهذا رأيت أن أقصر حديثي عن أهم خصائص هذا التعليم، بإجمال وإيجاز، وأطمع أن يكون في هذا ما يقدم تصوراً كافياً عن فلسفة التعليم المستمر، ومناط الاهتمام العالمي به الآن.

خصائص التعليم المستمر:

إن الدرسات التي كتبت في التعليم المستمر أو التعليم مدى الحياة، وحاولت أن تبين مقومات وخصائص هذا التعليم تكاد تلتقي في الحديث عن هذه الخصائص حول مايلي:

(ا) : الارتباط بالحياة :

إن موضوع التعليم أياً كان نوعه هو الإنسان من كل جوانبه وفي مختلف مواقفه، واتساع مسئولياته، أو الإنسان كما هو في الواقع، ولذا كان من أهم خصائص التعليم ولا سيما التعليم المستمر هو ربط الإنسان

(١) انظر: تعليم الكبار للدكتور محمود قمبر، ص٣٩، ٤٠.

بحياته من حيث مواجهة كل متغيرات هذه الحياة، للارتقاء بها، والتغلب على مشكلاتها، وبعبارة أخرى لتحسين كيف الحياة أو نوعيتها[1].

إن التعليم المستمر يخرج بالتعليم إلى الناس في واقع حياتهم، يعيشها معهم بكل آمالهم، وآلامهم، ويتخذ من البيئة المحيطة فصله الدراسي الواسع، فيقدم للناس المعرفة التي يحتاجونها والخبرة التي تنقصهم والمهارة التي يرغبون في اكتسابها، إنه يحول التعليم إلى حياة نامية، يصوغها الناس بالعلم والعمل، و يرفع فيها شعاراً جليلاً، «من عرف شيئاً علّمه، ومن جهل شيئاً تعلمه»[2].

ويقتضي ارتباط التعليم بالحياة أن تكون المناهج الدراسية أكثر صلة بمشكلات المجتمع، وأن تتكيف تكيفاً دقيقاً مع احتياجات التغيير[3]، فهي مناهج تستجيب للتطوير والتجديد، وفقاً لثقافة كل بيئة وقيمها وتقاليدها الخاصة[4].

على أن ارتباط التعليم المستمر بالحياة لا يحقق فحسب التكيف مع المتغيرات وإنما يفسح المجال أيضاً لقدرات الإنسان الإبداعية، وبذلك تسود المجتمع روح الابتكار والتجديد، ومن ثم يتجه الخط البياني للتطور الحضاري إلى أعلا باستمرار.

(٢) الشمولية :

تعني الشمولية في التعليم المستمر أن هذا التعليم يمضي مع الإنسان في كل مراحل حياته، ويشمل كل المراحل التعليمية كما يشمل كل أنواع التعليم بما في ذلك التعليم الرسمي الذي يقع داخل مؤسسات معاهد

---

(١) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي ص٥٤.

(٢) انظر: د. محمود قمبر، مرجع سابق، تعليم الكبار، ص١٢٢، ١٢٣.

(٣) انظر: التعليم مدى الحياة، ص١٧.

(٤) انظر: تعليم الكبار، ص١٢٢.

التعليم، والتعليم غير الرسمي الذي يتم في المؤسسات غير التعليمية، والتعليم غير النظامي الذي يجري في مواقف الحياة المختلفة[1].

إن التعليم المستمر يضم كل أنظمة التعليم طوال فترة حياة الفرد، ومن ثم فليس هذا التعليم مرادفاً للدراسة النظامية، وإنما تعد هذه الدراسة مقدمة أو بداية للتعليم مدى الحياة، فالإنسان لا يمكن أن يظل في تعليمه مرتبطاً بالدراسة النظامية حتى اليوم الأخير من حياته، ولهذا كانت هذه الدراسة مقدمة مهمة وضرورية لغرس اتجاه وعادة التعليم مدى الحياة في الناس حتى يتحول المجتمع إلى مجتمع تعلم، فالتعليم المستمر لا يلغي التعليم المدرسي ، ولكن يريد لهذا التعليم أن يكون مدخلاً للتعليم مدى الحياة.[2]

(٣) الشعبية أو الديمقراطية:

تنهض نظرية التعليم المستمر على أن هذا التعليم حق لجميع الناس، ويجب أن تتحقق الفرص المتكافئة لكل فرد دون نظر إلى المستويات المختلفة من حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي والنضج العقلي، فالتعليم المستمر حق للجميع بلا استثناء[3].

إن التعليم المستمر ليس كالتعليم النظامي امتيازاً، أو مقصوراً على بعض فئات المجتمع، فلكل فرد حق في ذلك التعليم في أي مرحلة من مراحل الحياة مادام يتمتع بالقدرة على الاستفادة منه، وهذا الحق يدخل ضمن الحقوق الأساسية للإنسان، والذي نصت عليه وثيقة حقوق الإنسان العالمية.

وشعبية التعليم المستمر أو ديمقراطيته تعنى انفتاحه على كل طبقات

---

(١) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي، ص٣٧.

(٢) انظر: التعليم مدى الحياة، ص٤٤، ١٠٠.

(٣) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي، ص٣٧.

المجتمع وبخاصة الطبقات التي حرمت طويلاً من فرص هذا التعليم، كما تعنى نشره وتعميمه، وتيسيره لكل إنسان مهما تكن قدراته وظروفه، كما تعني أيضاً تغيير النظم التقليدية في بُنى التعليم ومحتوياته وأساليب تدريسه وإدارة مؤسساته، وأولويات أهدافه[1].

(٤) المرونة والتنوع :

مادام التعليم المستمر في خدمة الإنسان ومواجهة تطورات البيئة فإنه يتسم وفقاً لهذا بالمرونة في محتوى ما يتم تعلمه وفي عملية التدريس وفي الأدوات المستخدمة في التعليم والوقت الذي يستغرقه[2].

إن المرونة والتنوع في التعليم المستمر تعني تقبل المواد التعليمية المناسبة للحاجات المتغيرة باستمرار، واستخدام وسائل اتصال حديثة، وإتاحة المجال للأنماط البديلة للتعلم، وتعدد أنماط محتويات التعليم وأدواته ووسائل تقويمه وتنوع توقيته.

ومن سمات المرونة والتنوع في هذا التعليم أن الفرد لا يكون ملزماً بالسير في اتجاه تعليمي واحد لا يتغير طوال حياته بناء على ميول أملت عليه اتخاذ قراره منذ طفولته، أو ما فرضه الآخرون عليه، وإنما يفترض أن هناك إمكانية مستمرة للتغيير من خلال عمليات التعلم الجديدة بعد انقضاء مرحلة التعليم النظامي[3].

(٥) التكامل :

التكامل في مدلوله اللغوي هو الجمع بين عدة أشياء يكمل بعضها بعضاً وصولاً إلى غرض واحد.

---

(١) انظر: تعليم الكبار، ص١١٨.

(٢) انظر: التعليم مدى الحياة، ص٤١.

(٣) انظر: التعليم المستمر والتثقيف الذاتي، ص٣٨.

والتعليم المستمر ينطوي على نوعين من التكامل هما:

أ - **التكامل الأفقي:** ويراد به الجمع بين مختلف أنواع التعليم التي تقدم في نطاق المجتمع ابتداء من البيت والبيئة المحلية ومؤسسات التعليم الرسمي وغير الرسمي إلى المهارات الاجتماعية التي تكتسب عبر تفاعل الإنسان مع الناس والحياة.

ب - **التكامل الرأسي:** وهو الربط بين الأنواع التعليمية المختلفة التي تتاح للأفراد خلال حياتهم.

وهذا التكامل بنوعيه أصبح أمراً ضرورياً لتحقيق التنمية الكاملة للشخصية في كل مراحل الحياة، كما أنه ضرورة أيضاً للقيام بالمسئوليات الفردية والاجتماعية بطريقة متكاملة، والاهتمام بكل هذه المسئوليات على درجة سواء ابتداء من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً بأسلوب يحقق أقصى حد من الفعالية.

ولكي يحقق هذا التكامل رسالته ينبغي أن يتحقق تكامل في الأهداف وتكامل في الوسائل حتى تصبح كل الجهود التربوية مكملة لبعضها البعض، وحتى يمكن تعبئة أقصى قدر ممكن من الموارد بأقل قدر ممكن من المجهود[١].

وخلاصة القول:

إن التعليم المستمر ينضوي تحت لوائه كل أشكال التعليم المختلفة كالتعليم المدرسي، والتعليم المتزامن[٢]، والتعليم المتناوب[٣] وتعليم الكبار،

---

(١) انظر: المصدرالسابق، ص٣٨، ١٠٣.

(٢) التعليم المتزامن: تدل كلمة متزامن على معنى خاص بحسب السياق الذي يتم فيه التعليم فيقال: تعليم متزامن مع العمل أو تعليم متزامن مع التدريب أو تعليم متزامن مع حاجات التنمية والعصر.

(٣) التعليم المتناوب: تعليم يمكن الدارسين من العودة إلى الدراسة والانتظام في سلك

والتعليم الوظيفي[1]، وأنه لهذا تعليم شامل لكل مراحل الحياة ولا يعرف الجمو في مناهجه أو طرق تدريسه كما لا يعرف الانغلاق وعدم الانفتاح على كل الثقافات والمعارف، وهو فضلاً عن ذلك تعليم يحقق الفرص المتكافئة للجميع دون تفرقة بين طبقات المجتمع أو فئاته، فهو تعليم العامة وليس تعليم الصفوة، ومن هنا كان له أثره البالغ في اكتشاف المواهب وتحقيق الذات ونهضة الأمم.

ويضع علماء التربية ثلاثة شروط أو متطلبات لقيام هذا التعليم، وهي الفرصة، والدافع ، والقدرة على التعليم.

ويراد بالفرصة إتاحة التعليم النظامي وغيره بصورة كافية في القطاعات المهنية والعامة، وكذلك توفير البيئة التعليمية المثالية في كل من المنزل والمجتمع المحلي بالإضافة إلى المؤسسات التعليمية.

إن توفير فرص التعليم يحقق لدى الأفراد الرغبة في التعليم ويصبح التعليم المستمر تعليماً ذاتياً بصورة أكبر، وتعليماً موجهاً ذاتياً كلما انتقل الشخص من مرحلة إلى مرحلة.

ويعد الدافع أو الحافز من أهم متطلبات ذلك التعليم فإتاحة الفرص لا جدوى منها ما لم تكن هناك رغبة قوية في الإفادة من هذه الفرص، فهي من ثم المقوم الأساسي لجعل التعليم المستمر واقعاً عملياً.

وأما القدرة على التعليم فهي الاستعداد للإستفادة من فرص التعليم، وهذا الاستعداد يشمل مجالات كثيرة من أهمها المهارة في استخدام

التعلم بعد فترة انقطاع بسبب العمل. وقد اهتمت به الدول الغربية وبخاصة في عقدي السبعينات والثمانينات.

(١) التعليم الوظيفي: هو التعليم الذي يتمركز في محتوياته وأساليبه حول المتعلم ، ويتكيف معه تبعاً لمستوى نموه، ونوعية حاجاته في المعرفة والسلوك والعمل. إنه تعليم يعمل لأهداف محددة لها قيمتها العملية النفعية أو المحسوسة كما يدركها المتعلم في وقته الحاضر.

الوسائل الفنية للتعلم، بطريقة فعالة، والقدرة على القيام بالتعلم المستقل اعتماداً على النفس[1].

وأخيراً فإن الحديث عن التعليم المستمر حديث ذو شجون وقد قدمت عنه فيما سبق صورة مجملة عامة أطمع أن تكون كافية للتعريف به، ولبيان موقف الإسلام منه.

الإسلام والعلم:

يجدر قبل الكلام عن موقف الإسلام من التعليم المستمر الحديث عن العلم والتعليم في هذا الدين، والذي لا مراء فيه أن حديث العلم في الإسلام لا تكفي دراسة موجزة لتقديم صورة كاملة عنه، فأول اية نزلت من كتاب الله وهي: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ تعد مفتاح العلم أياً كان نوعه، والقرآن الكريم ليس فيه آية واحدة تحول بين العقل والتدبر والتفكير[2]، وكذلك مجاميع السنة النبوية ليس فيها حديث واحد يقف في طريق العلم[3] والتعلم، بل إن الآيات والأحاديث النبوية الكثيرة تحض على النظر في الأنفس وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وسوى ذلك مما أبدع الله في هذا الكون الفسيح.

وإلى جانب الآيات والأحاديث التي تدعوإلى التفكير وتأمر بالتدبر ولا تسوي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون هناك آيات وأحاديث متعددة تنهى عن التقليد وتحذر من اتباع الظن والقول دون علم وتبين أن الذين ألغوا عقولهم واتبعوا سواهم دون برهان كالأنعام أو أضل سبيلاً، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العلم في الإسلام فريضة وأن المؤمنين بهذا الدين الخاتم خير أمة أخرجت للناس، لأنهم أمة العلم بمعناه

---

(١) انظر: التعليم مدى الحياة، ص٣٦، ١٠٩

(٢) انظر: التفكير فريضة إسلامية، للأستاذ عباس محمود العقاد.

(٣) انظر: الرسول والعلم، للشيخ يوسف القرضاوي.

الشامل.

ومادام حديث العلم في الإسلام على هذا النحو من السعة والشمول فإني أقصر كلامي عنه على أهم الأصول الكلية، دون الدخول في جزئيات أو مسائل فرعية أو ما يمكن أن يدخل تحت مناهج التدريس، أو مبادئ التعليم وآدابه.

والأصول الكلية أو الدعائم الأساسية للعلم في الإسلام هي:

أولاً : مجال العلم في الإسلام:

إن للعلم في الإسلام مجالاً لا ينبغي تجاوزه، وهو ما يمكن أن يسمى بالمتغيرات، أي بما لا يثبت على حال ولا يعرف القطع من الأحكام، فهذه لا مجال للعقل بأن يقضي فيها بغير ما قضى الله، إن الأمور القطعية لا يتناولها العقل الإنساني بالبحث والنظر إلا من حيث دلالتها على وجود الخالق وقدرته وحكمته. أما الأمور المتغيرة والتي لا تأخذ حكم الثبات فهي المجال الفسيح لطلب العلم واستعمال العقل ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[1] إنها دعوة للنظر في هذا الكون سماواته وأرضه وما فيها ، وهو نظر يتغيا الوقوف على بعض أسرار ما خلق الله، ليزداد المؤمنون إيماناً، كما يتغيا الانتفاع على أكمل وجه بما سخر الحق للإنسان من كائنات، حتى ينهض برسالته في الحياة كما ينبغي أن تكون.

ثانياً : الغيب والشهادة:

وإذا كانت المتغيرات هي ميدان العلم والنظر العقلي فإن هذا يعني قصر البحث على عالم الشهادة دون عالم الغيب، فهذا العالم ينبغي الإيمان به كما أخبر الله عنه؛ لأن طاقة العقل أعجز من أن تعرف طرفاً عنه دون اعتماد على الوحي.

---

(١) الآية: ١٠١ في سورة يونس.

وقصر العلم على عالم الشهادة دون عالم الغيب يكفل للإنسان العطاء المبدع، لأن العقل سيبحث في الميدان الذي أعد له، فإذا تطلع إلى غير هذا الميدان فقد أقحم نفسه فيما لا قدر له عليه، ولن يرجع من رحلة النظر والبحث فيه إلا بالعجز والاضطراب.

يقول ابن خلدون[1]:

واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تستطيع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال.

إن العلم الإسلامي لا يذهب بعيداً وراء عالم الشهادة، ولا يفسح صدره لأي جهد عقلي لا يحقق خيراً للإنسان في عاجلته وآجلته، ولذا يرفض الإسلام البحوث الميتافيزيقية لأنها شطحات وأوهام وظنون لم تثمر في عالم المعرفة الإنسانية سوى الحيرة والقلق والاضطراب الفكري، وتبديد الطاقات العقلية دون جدوى.

ثالثاً : الجمع بين الروح والمادة:

إن كل علم يحقق للإنسان في حياته خيراً يجب الاهتمام به والتعمق فيه، ومن الخطأ الموازنة بين علم نظري وعلم عملي فلكل مجاله ورسالته وهما متكاملان لا مختصمان، والعالم الجدير بهذا الوصف هو الذي يتمتع إلى جانب تخصصه الدقيق بإلمامه بكل الثقافات والمعرفة التي يموج بها عصره.

لقد كان من أوزار الحضارة المعاصرة أنها أولت العلم المادي كل

(١) مقدمة ابن خلدون ص٨٢٥ ط. بيروت.

الاهتمام فكان من ثمرة ذلك أن نشأت أجيال من العلماء لا قلوب لها وأصبح العلم لديها سلاحاً للطغيان والبغي والعدوان، وقد أدركت بعض جامعات العالم هذا الخطأ الذي أورث البشرية في العصر الحديث استعمار الشعوب الضعيفة والحروب الكونية الرهيبة فأدخلت في مناهج الكليات العملية دراسات إنسانية كما أضافت إلى مناهج الكليات النظرية بعض المقررات العلمية [1]، وهي بذلك تحاول علاج الخلل الذي لحق بالبحث العلمي المعاصر من جراء الصراع بين الدين والعلم في الغرب، والاهتمام بالعلوم التجريبية دون النظرية، كما تحاول أن تعد للمستقبل علماء لا يعرفون الانفصام بين الروح والمادة علهم يجنبون البشرية أخطار الحرب النووية.

ولأن العلم في الإسلام ينطلق من عقيدة التوحيد والإيمان بالوحي الإلهي مصدراً للمعرفة الإنسانية كلها كان الصراع منفياً بين العلم والدين وكان البناء الفكري للعالم المسلم مزاجاً من الجمع بين الروح والمادة، وكان العلم لهذا في خدمة العقيدة والحياة الإنسانية الكريمة لا في خدمة الأطماع الاستعمارية ونشر الرعب والقلق بين الناس.

رابعاً: النظر والتطبيق:

ليس العلم في الإسلام ترفاً عقلياً ولا متعة ذهنية ولا غاية في ذاته، إنه وسيلة للعمل والتطبيق، فإذا تعلم الإنسان شيئاً نافعاً ولم يترجمه إلى سلوك فلا جدوى منه، بل يصبح ما تعلمه حجة عليه، ومن هنا كان الإيمان الصادق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وكان هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون ضعاف الإيمان إن لم يكونوا منافقين، وقد حذر القرآن الكريم من التفريق بين القول والعمل، ومن فرق بينهما تعرض لأكبر المقت وأشد البغض من خالقه ﴿يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوالِمَ تَقُولُونَ مَا لا

(١) انظر: «الحرية» للدكتور احمد زكي ، كتاب مجلة العربي الأول، ص١٤٢

تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[1].

قال الإمام الشاطبي (ت: ٧٨٠هـ) في المقدمة الثامنة من المقدمات التي صدر بها كتابه الموافقات: العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً، أعني العلم الذي مدح الله ورسوله أهله على الاطلاق هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان ، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً[2].

إن تطبيق العلم هو الأساس في طلبه، فمن طلبه دون أن يعمل به كان وبالاً عليه، ومن ثم كان النظر والتطبيق في الإسلام متلازمين، أو وجهين لعملة واحدة، ولأن تطبيق العلم هو الأساس في طلبه كان العلم في الإسلام هادياً لليقين ومرسخاً للإيمان، ولذلك كان طلب العلم فريضة والعمل به فريضة وكان الذين يعلمون ولا يعملون بما يعلمون لا يعبدون الله حق عبادته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3] وكلمة العلماء في الآية عامة تنسحب على كل عالم يفقه علماً نافعاً، ويعمل به، فكل من يدرس فرعاً من فروع العلم تتجلى له الأسرار والنواميس الدقيقة التي تملأ وجدانه إيماناً خالصاً وخشية صادقة وطاعة موصولة، ولهذا قصرت تلك الآية الكريمة خشية الله على العلماء ولتدل بمفهوم المخالفة على أن الجهلاء لا يخشون ربهم ولا يعرفون واجبهم نحو خالقهم[4].

خامساً : الاستمرار :

إذا كان العلم بحراً لا قرار ولاشطآن له، فإن طالبه كلما تعمق فيه

(١) الآية: ٢، ٣ في سورة الصف.

(٢) الموافقات جـ١ ص٦٩ ط. المكتبة التجارية ، القاهرة.

(٣) الآية: ٢٨ في سورة فاطر.

(٤) جاء في تفسير المنار جـ٢ ص٦٣ ط. دار المعرفة، بيروت : بقدر ارتقاء العقل في العلم يكمل التوحيد في الإيمان وإنما يشرك بالله أقل الناس عقلاً وأكثرهم جهلاً.

تفتحت له فيه أبواب جديدة، وتبينت له معالم كانت خافية وتحتاج إلى مزيد بحث ومزيد تحقيق[1].

والإسلام وهو دين الحياة الفاضلة ودين القوة العادلة، ودين الحضارة الإنسانية يأمر بطلب العلم والتبحر فيه مادام الإنسان قادراً على طلبه، فليس للعلم في هذا الدين مرحلة تعليمية محددة، فأول آية نزلت من دستوره الخالد تأمر بالقراءة، والأمة التي خاطبها الوحي الإلهي أول ما خاطبها بالقراءة والتعلم بالقلم لا بد أن تكون غير جاهلة، وأن يكون كل أفرادها على درجة ما من العلم والمعرفة، لأن من قصر منهم في طلب العلم وهو متاح له فليس له أن يدعي أنه ينتمي إلى أمة الإسلام.

إن الأمة التي خاطبها القرآن بقوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] هذه الأمة لن تفارق العلم ولن تفرط فيه، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم.

ودعوة القرآن إلى التزود من العلم دعوة مفتوحة لكل عصر ومصر، كما أن توجيه الكتاب العزيز للعقل كي ينظر ويتدبر ويبدع ويطور توجيه دائم لا يعرف حدود الزمان والمكان ولهذا لم يكن القرآن انقاذاً للبشرية من دياجير الوثنية فحسب، وإنما كان انقاذاً لها أيضاً من ظلمات الجهل والتخلف والأمية، ولا غرو أن بدأت البشرية بعد نزول القرآن عهداً جديداً في تاريخها لم تعرفه من قبل.

إن مبدأ التعليم المستمر من المبادئ الخالدة التي دعا إليها الإسلام، وطبقها المسلمون منذ فجر الدعوة، إنه مبدأ يتيح لكل الناس فرص التعليم دون تفريق بينهم، وهو أيضاً مبدأ لا ينتهي بمرحلة دراسية محدودة، وإنما

(١) انظر: الرسول والعلم للشيخ يوسف القرضاوي، ص٩٦ ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) الآيات: ١-٥ في سورة العلق.

يظل ملازماً للإنسان طوال حياته، فهو يحرص من ثم على الاستمرار في طلب العلم وعدم التوقف عن طلبه مهما تكن الأسباب.

والمسلم فضلاً عن حرصه البالغ على طلب العلم والتزود به من المهد إلى اللحد يشعر بأنه مهما يبلغ في تحصيل العلم يظل منهوماً إلى المزيد منه، فهو لا يشبع أبداً، ولهذا كان دعاؤه ﴿وَقُل رَّبِ زِدْنِي عِلماً﴾[1] لأنه كلما حصل نصيبا من العلم تطلع نحو نصيب آخر، وأدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إلا قَلِيلاً﴾[2] فلا يفتأ مواصلاً جهاده في الطلب موقناً بأنه إن لم يفعل ذلك فلن يحتفظ بما تحصل عليه من العلم، فطلبه له أشبه ما يكون بالتجديف ضد التيار، والذي يتابع التجديف يتقدم بكل ضربة خطوة إلى الإمام فإن حل به الوهن أو جنح إلى الكسل ولم يتابع مقاومة التيار فلن يحتفظ بما بلغ إليه، لأن التيار سيدفعه إلى الخلف حتى يرجع إلى نقطة البداية ويذهب كل ما بذله من جهد سدى، وهكذا العلم يزكو وينمو بالمتابعة والاستمرار ويخبو ويضمحل بالإهمال والهجران.

والآثار التي رويت عن علماء المسلمين في مختلف التخصصات في طلب العلم طوال العمر، وفي كل مكان يلتمس فيه الإنسان ما يزيده معرفة وعلماً أكثر من أن تحصر وهي في مجموعها تؤكد دعوة الإسلام إلى التعليم المستمر، ومن هذه الآثار ما جاء عن سفيان بن عيينه قال: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإن ظن أنه علم فقد جهل»وقيل لابن المبارك حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم، فقال: «مادامت تحسن به الحياة»[3] وقيل له أيضاً عندما رآه أحد المسلمين مستمراً في طلب العلم مع بلوغه مستوى رفيعاً منه«أما يكفيك تلقي العلم؟ فقال: فلربما الكلمة التي انتفع بها لم

---

(١) الآية: ١١٤ في سورة طه.

(٢) الآية: ٨٥ في سورة الإسراء.

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر جـ١ ص١١٤ومابعدها.

أسمعها بعد»[1]

وجاء في كتاب تعلم المتعلم[2] للزرنوجي (ت: ٦٤٠هـ) أنه ليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك طلب العلم مهما كان عمره.

وسئل أحد الحكماء عن حد التعليم فقال: إن حد التعليم هو حد الحياة» [3]. ولم تكن مثل هذه الآثار التي تحض على التعلم باستمرار مجرد أقوال لا تعبر عن مضمون ، أو نصائح وتوجيهات لا تعرف التطبيق والالتزام، ولهذا كان سلف الأمة حريصين على ألا يمر يوم دون أن يكتبوا فيه شيئاً من العلم قل أو كثر، وإلا عدوا هذا اليوم ضياعاً وغبناً، وفي هذا روى الأثر: إذا أتى علي يوم لم أزدد فيه علماً يقربني من الله عز وجل فلا بُورِكَ لي في طلوع شمس ذلك اليوم.

وفي مثله قال القائل:

إذا مر يوم ولم أستفد هدى

ولم اكتسب علماً فما هو من عمري[4]

وما كان علماء المسلمين ليتركوا ذلك التراث الزاخر بالمعرفة والذي كان من وراء الحضارة المعاصرة، فالغرب لم يتخلص من ظلمات العصور الوسطى، ويبدأ عصر النهضة إلا على أضواء التراث الإسلامي وعلوم المسلمين، لو لم يعيشوا حياتهم رهباناً للعلم، لا يبتغون بطلبه جاهاً ولا مالاً، فلم يكن العلم في نظرهم أداة كسب ومادة عيش وإنما كان في نفسه متجراً ومادة ربح وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ص ٢٥ ط. استانبول.

(٣) انظر: تاريخ التربية في الإسلام للدكتور أحمد شلبي ص٣٠١ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية.

(٤) انظر: الرسول والعلم للشيخ القرضاوي، ص٩٩ .

مِنكُم والذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]

إن علماء المسلمين في حرصهم على طلب العلم ومداومتهم عليه حتى يأتيهم أمر الله لم يريدوا بذلك دنيا يصيبونها وإنما أرادوا أداء الرسالة المقدسة التي ناطها الله بهم كاملة غير منقوصة، وكم هلك منهم من هلك والكتاب فوق صدره، والقلم في يده، ومنهم من لفظ أنفاسه الأخيرة تحت ركام المؤلفات التي أنهالت عليه وهو يقلب صفحاتها في جنح الليل، فالجاحظ مثلاً أصيب بالفالج وظل به ثماني سنين ولكنه لم ينقطع عن العلم والتاليف حتى سقطت عليه كتبه فقضت عليه[2].

سادساً : الانفتاح :

وكما ينهض العلم في الإسلام على دعامة الاستمرار والطلب الموصول ينهض كذلك على الانفتاح على كل الثقافات والعلوم، فهو لا يعرف الانغلاق ، ولا يهاب ما لدى الآخرين من فكر وعلم، أو ينظر إليه نظرة عداء وازدراء، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها، وعند من رآها طلبها، والإسلام بتعاليمه، ومفاهيمه يربي المسلم تربية استقلالية تنتفع بما لدى غيرها من خير، وتهمل ما عداه، فالشخصية الإسلامية في طلبها للعلم لا تقنع بما في محيطها وإنما ترتاد كل منابع الفكر والثقافة مهما تباعدت أو اختلفت عقائد القائمين عليها، وهي إلى هذا الحرص البالغ على طلب العلم وأخذه دون نظر إلى مصدره تتمتع بحصانة تحول بينها وبين أن تذوب في سواها، وهي فيما تلم به من ثقافات، تحيله إلى صبغة جديدة فيصبح وكأنه فكر إسلامي خالص، فهذه الشخصية كالنحلة التي تجمع الرحيق من شتى الأزاهير ثم تخرجه بعد ذلك شهداً ذا مذاق خاص ونفع خاص.

وإن صدق هذا الموقف على ما يسمى بالعلوم النظرية أو الإنسانية فإنه

---

(١) الآية ١١ في سورة المجادلة.

(٢) انظر: من أخلاق العلماء للشيخ محمد سلمان، ط. دار الشعب ، القاهرة.

يصدق كذلك على ما يسمى بالعلوم التجريبية -وإن كان هذه لا وطن لها بخلاف تلك العلوم- لأن المسلم في طلبه العلم أياً كان نوعه لا يكون بمعزل عن عقيدته، ومن ثم يحكمه في دراسته القيم والمفاهيم الإسلامية، فهو حين يعكف على العلوم التجريبية، وينتهي من بحثه فيها إلى الوقوف على طرف من السنن الكونية يزداد إيماناً بتلك القيم ويرفض أن تصبح ثمرات هذه العلوم أداةً لامتهان كرامة الإنسان ، بل ينبغي أن تظل وسيلة للخير والبر.

ولأن العلم في الإسلام يقوم على الاستمرار والمتابعة ولا يعرف التوقف أو التخلف عن ركب الفكر والحضارة والتطور، ولأنه يقوم على الانفتاح الواعي وتلمس المعرفة حيث تكون -كان علماً حياً نامياً متطوراً يلاحق كل جديد، ويبدع كل جديد، ويسهم في تقدم الحياة ورفاهيتها ولا ينفصل عن مشكلات الزمان والمكان مؤثراً فيها ومتأثراً بها، فهو يعيش الواقع ويدفع به إلى الأمام ولا يحيا في الغابر أو يجمد على الموروث.

الإسلام والتعليم المستمر:

وبعد الحديث عن أهم الأصول الكلية أو الدعائم الأساسية للتعليم في الإسلام يمكن القول أن هذا الحديث على إيجازه يدل على أن منزلة العلم في هذا الدين جليلة فطلبه فريضة والعمل به فريضة، وبه يرفع الله الذين آمنوا درجات، فهم كالمجاهدين يعدل المداد الذي يدونون به علمهم دماء الشهداء . .

كذلك يتضح من تلك الدعائم أن طلب العلم في الإسلام لا يعرف مرحلة زمنية محددة بوقت أو سن، كما لا يعرف انغلاقاً على لون من المعرفة لا يتجاوزها إلى سواها، فالحكمة ضالة المؤمن دون نظر إلى مصدرها أو قائلها، والعلم الإسلامي إلى انفتاحه على كل الثقافات ينهل منها في وعي، وينتفع بها في إطار العقيدة السمحة، وقيمها التي صلح عليها أمر الدنيا والآخرة لا يجمد على أساليب محددة، وإنما يساير في

مناهجه الزمن ويسع التطور ويلائم ظروف كل بيئة، فهو علم عملي حي يعيش الواقع، ويسدد خطاه نحو الخير للناس كافة.

وما خلفه السلف من تراث علمي في مختلف المجالات برهان ساطع على الإخلاص النادر والشغف البالغ والمتابعة المستمرة في طلب العلم وتدوينه، وهذا التراث إذا كان قد ضاع منه قدر هائل في عصور النكبات الجسام فإن ما وصل إلينا منه يكفي دليلاً ساطعاً على العبقرية الإسلامية التي قدمت للبشرية كلها حضارة إنسانية خالدة..

ودين يحتفي بالعلم والعلماء هذا الاحتفاء يمد يده لكل تجربة إنسانية ترفع من قدر العلم، وتتخذ منه وسيلة للحياة النامية المتجددة التي تحترم الإنسان لذاته دون نظر إلى جنسيته أو عقيدته.

والتعليم المستمر الذي أطبقت كلمة الشعوب والأمم في العصر الحاضر على أهميته ، وتخطط في دأب لتطبيقه ونشر مفاهيمه ومناهجه لا يعارضه الإسلام من حيث المبدأ، بل يحبذ الدعوة إليه، لأنه أول من أرسى قواعده ومبادئه، وكان المسلمون هم الرواد في الأخذ بنظرية هذا التعليم، وعنهم نقلت أوروبا فكان ما نقلته النور الذي بدد ظلمات العصور الوسطى، ووضع الغرب الذي عاش على فتات علوم الإغريق على طريق النهضة والحضارة.

مفهوم القوة في الإسلام وعلاقتها بالتعليم المستمر:

إن الإسلام دين القوة بمفهومها الواسع الجامع، وهو مفهوم يختلف إلى حد كبير عن مفهومها في بعض المذاهب الاجتماعية والآراء الفلسفية.

القوة التي يدعو إليها الإسلام تتسع في مدلولها لتشمل كل قوة روحية أو مادية تحتاج إليها الأمة، فليست مقصورة على جانب من جوانب الحياة، ولكنها تعم مظاهر الأمة المختلفة، من شئون فردية وجماعية.

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

وَمِن رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[١]

ولا ريب في أن مظاهر القوة المادية تختلف من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، فالخيل في الآية الكريمة يناظرها في عصرنا الحاضر المدفع والدبابة والطائرة والصاروخ.

ومادام العلم هو السبيل إلى القوة المادية في صورها المختلفة وما دام الإسلام يدعو المؤمنين به ليكونوا أقوياء معنوياً ومادياً وفقاً لظروف الزمان والمكان فإن العلم في هذا الدين فريضة وضرورة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والتعليم المستمر أصبح اليوم ضرورة ، فالإسلام من ثم يدعو إليه ويأمر به ويعد التفريط فيه تفريطاً في إعداد القوة وتمكينا لأعداء الله في الظهور على المؤمنين.

ويضاف إلى هذا أن الحق تبارك وتعالى أمر الناس كافة بعمارة الأرض التي كانت منها النشأة وإليها العودة ومنها الخروج تارة أخرى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٢]

والمسلمون وقد أنزلهم الله منزلة القيادة والريادة والشهادة على غيرهم من الأمم ينبغي أن يكونوا أسبق من سواهم في تعمير الأرض والانتفاع بكل ما أودع الله فيها من خيرات، والعلم هو السلاح الذي يتيح هذه العمارة ، فكان التبحر فيه من خصائص الأمة الإسلامية لتظل بحق خير أمة أخرجت للناس. .

وفضلاً عن كل ما سبق، فقد قضى الحق تبارك وتعالى أن يكون الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الخاتم، والرسالة العامة والدعوة العالمية، ولذلك كان الإسلام دين الفطرة وصالحاً

---

(١) الآية: ٦٠ في سورة الأنفال.

(٢) الآية: ٦١ في سورة هود.

للتطبيق الدائم لقيام تعاليمه على اليسر ونفي الحرج وتحقيق المصالح العامة والخاصة في قصد واعتدال، واحترام العرف الصحيح، ودعوته إلى الاجتهاد، فيما هو مجال له، وأمره بالنظر و التفكر وطلب العلم، فالإسلام لكل ما أسلفت من الأمر بإعداد القوة وعمارة الأرض، وأنه الرسالة التي ختم الله بها وحيه، وجعلها للناس جميعاً وأنها لهذا صالحة للتطبيق الدائم دين العلم والحضارة، ودين الانفتاح الفكري والانتفاع بكل التجارب العلمية مادامت تخدم الإنسانية ، ومن هنا يهش الإسلام إلى ما انتهت إليه جهود علماء التربية أخيراً من الدعوة إلى التعليم المستمر على مستوى العالم كله . .

ومع هذا لابد من الإشارة حول موقف الإسلام من التعليم المستمر إلى أمرين :

أولاً : إن علماء التربية في الغرب لم يقولوا بالتعليم المستمر إلا مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، وحدث التطبيق الفعلي لما نادى به هؤلاء العلماء بعد انعقاد المؤتمر الدولي لتعليم الكبار الذي عقد بمدينة طوكيو باليابان عام ١٩٧٢م.

والإسلام دعا إلى هذا التعليم منذ نحو خمسة عشر قرناً، ونادى علماء المسلمين بالتعليم مدى الحياة منذ القرن الهجري الأول وطبقوه في حياتهم تطبيقاً كاملاً، وكان من ثمرة ذلك تلك الثروة العلمية الضخمة التي وجهت الفكر الإنساني نحو التطوير والتغيير والحضارة.

ثانياً : إن الذي حمل علماء التربية في الغرب على المناداة بالتعليم المستمر هو مواجهة التغيرات الحضارية المتلاحقة ، فغايتهم تتمثل في مواكبة التطورات العلمية تحقيقاً لمبدأ «تعلم لتكون» أي كيف تفكر وتصبح مواطناً منتجاً، فضلاً عن اكتشاف الذات وتحقيق الوعي بما لدى الإنسان من إمكانيات حفاظاً على نوعية الحياة وتحسينها.

وتكاد أهداف التعليم المستمر في الفكر التربوي الغربي تنحصر في

النفع المادي ورفاهية العيش وإيجابية السلوك ومتابعة التطور والنمو المعرفي.

والإسلام وهو دين الحياة لا يحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق، والعلم الذي يكفل للإنسان حياة سعيدة علم يدعو إليه الإسلام، ومن هنا فهذا الدين يحترم أهداف التعليم المستمر التي نادى بها علماء التربية، غير أنه لا يجعل هذه الأهداف غاية في ذاتها، وإنما يتخذها وسيلة لرقي الإنسان وتكريمه ليكون عبداً لله يخشاه ويعلي كلمته في دنيا الناس.

إن العلم في الإسلام يحمي الإنسان من أمراض التخلف ويأخذ بيده نحو خالقه، ويجعل منه قوة ترهب أعداء الله وأعداء الحياة، لتسود راية الحق والعدل والفضيلة وبذلك تختلف غاية التعليم المستمر في الإسلام عن غايته في الفكر التربوي الوضعي، فهذا الفكر يخدم الحياة الدنيا، ولكنه لا يلقي بالاً للحياة الآخرة، ولهذا شقي المجتمع البشري في ظل التقدم والتطور العلمي المعاصر، وما يجري كل يوم في أوطان كثيرة من مظاهر العنصرية الكريهة، والحروب الطائفية المدمرة، والصراعات الدولية من أجل الهيمنة على خيرات الشعوب الضعيفة، وتدمير أسباب الحياة على وفرتها ليظل احتكار الغذاء سلاحاً يقضي على الحرية والكرامة الإنسانية، أوضح برهان على أن هذا التطور لا تحكمه قيم دينية صحيحة، ولم يحقق للإنسان سوى البغي والخوف من حرب كونية قد ترجع بالبشرية إلى الحياة البدائية ولن يحول بين العالم وكارثة الدمار الشامل إلا أن يفيء إلى ما قرره الإسلام من تعاليم تضع العلم في موضعه الصحيح وتتخذه وسيلة للتقدم الذي لا يعرف العنصرية وإنما يعرف الأخوة الإنسانية.

نحو تعليم إسلامي مستمر:

وإذا كان العالم على الرغم مما بلغ إليه من التقدم العلمي يعاني من مشكلات تسلبه الأمن والاستقرار، وتطبع حياته بطابع القلق والاضطراب

وأن تعاليم الإسلام هي وحدها سبيل الخلاص من تلك المشكلات فإن العالم اليوم لا يهتم بالأفكار والآراء النظرية وإنما يحترم الرأي إذا كان له في الواقع العملي تأثير وتوجيه، والأمة الإسلامية وهي بنص كتابها الخالد أمة واحدة، وأمة قارئة وأمة معلمة ومتعلمة، ينطق واقعها المعاصر بغير ما وصفها به الكتاب الذي أحكمت آياته، فهي ممزقة تستنفد الصراعات الدموية بين كثير من شعوبها كل ما لديها من طاقات وإمكانات مادية، وتكاد نسبة الأمية بين المسلمين تبلغ مستوى لم تبلغه لدى أمم أخرى، فإذا قلنا للعالم إن لدينا الخلاص مما يعاني منه فإن أحداً لن يأبه لقولنا، ففاقد الشيء لا يعطيه ومن هنا تقع على المسلمين الآن مسئولية كبيرة وخطيرة. فهي مسئولية نحو أنفسهم أولاً ونحو غيرهم ثانياً.

والقيام بالمسئولية نحو أنفسهم كما ينبغي أن تكون سيكون الخطوة الأولى للقيام بهذه المسئولية نحو غيرهم.

إن علة العلل في واقع العالم الإسلامي تكمن في الأمية الدينية وضمور الوعي الإسلامي الصحيح، وقد ارتد ذلك على هذا العالم بالتخلف العلمي، والصراع المذهبي، والاهتمام الزائد بالجزئيات وما هو مختلف فيه.

والأمر جد خطير وأهل الذكر والرأي مطالبون بالتخطيط العلمي المدروس لعبور الفجوة التي تفصل بين العالم الإسلامي وقيمه الخالدة، وأيضاً بينه وبين المتغيرات الحضارية المتلاحقة.

ولعل في وضع منهج لتعليم إسلامي مستمر، يربط بين الدين والحياة، ويؤكد على أن متابعة التثقيف الذاتي جزء من العقيدة ، وأن المسلم لا يخلق به أن يكون جاهلاً أو أمياً وأن كل يوم يمر عليه دون أن يستفيد جديداً من المعرفة، فليس من عمره. يقرب المسافة بين واقع العالم الإسلامي، وما ينبغي أن يكون عليه من القوة والتقدم، والتعاون على الخير والبر.

ووضع مثل هذا المنهج في تفصيل وشمول ليس أمراً هيناً، وتطبيقه في دقة وإخلاص يحتاج إلى جهود مضاعفة، فكليات التربية في العالم العربي مثلاً وقد أربى عددها على الخمسين في حاجة ملحة إلى تغيير برامجها ومناهجها فهذه المناهج لا تختلف في جوهرها عن المنهج الغربي الذي حارب الدين وأبعده عن العلم، ولكن تعاون المؤسسات التربوية المتخصصة في التخطيط ووضع المناهج من منظور إسلامي سيجعل من اليسير الوصول إلى تقديم نظام تربوي إسلامي أصيل[1]، يكون التعليم المستمر فيه هدفاً للجميع، والتثقيف الذاتي غاية يحرص عليها كل فرد .

وبهذا النظام ودقة تطبيقه ستتوارى المشكلات شيئاً فشيئاً ويخطو المجتمع خطوات حثيثة نحو الأصالة والتغيير والتطوير والمعاصرة.

إن المجتمع الإسلامي يعيش اليوم كسفينة في عاصفة لا تعرف شاطئاً تاوي إليه وتحتمي به من مصير محتوم مع أنها تحمل وسائل نجاتها، وأسباب انطلاقها دون أن تخشى أمواجاً متلاطمة ورياحاً عاتية، ولكن الربابين غفلوا عن هذه الأسباب وتلك الوسائل أو لا يحسنون القيام عليها والانتفاع الأمثل بها.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

---

(١) انظر: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي للدكتور محمد فاضل الجمالي ،ط. دار التونسية للنشر، ومنهج التربية في الإسلام للأستاذ محمد قطب، ط. القاهرة.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة الموجزة عن التعليم المستمر ، ما أهم نتائجها العلمية، وماذا ترشد إليه من توجيهات وتوصيات.

يمكن القول بأن أهم النتائج العلمية مايلي:-

أولاً : عرف التعليم المستمر منذ أقدم العصور، ولكن ثورة المعلومات في العقود الأخيرة ، دعت إلى الاهتمام بالتعليم مدى الحياة.

ثانياً : أهم خصائص التعليم المستمر الارتباط بالحياة وإتاحته للجميع وتنوعه وتكامله ، ويكاد يصدق مفهومه على كل أشكال التعليم المختلفة.

ثالثاً : دعا الإسلام إلى التعليم من المهد إلى الحد ، تكريماً للإنسان وتحقيقاً لمعنى العبودية الكاملة لله سبحانه، وسبيلاً إلى القوة التي ترهب أعداء الله وأعداء الحياة.

رابعاً : يقوم التعليم المستمر في الإسلام على دعائم أهمها الانفتاح والأمانة والجمع بين الروح والمادة والنظر والتطبيق وترسيخ الإيمان ، ورفض العنصرية واحتكار المعرفة.

خامساً : يختلف طلب العلم في الإسلام عن طلبه لدى غير المسلمين، فهو في الإسلام يأخذ بيد الإنسان نحو خالقه، ويقوم على مفاهيم الإخوة الإنسانية ، والعدالة، ولكنه لدى غير المسلمين وسيلة القوى ليزيد الضعيف ضعفاً والجاهل تخلفاً، لقد أصبح

لدى هؤلاء بغياً بين أهله فتباروا في استخدامه في غير ما يجب أن يكون.

وأما أهم <u>التوصيات</u>: فهي الدعوة إلى إضافة مادة تعليمية في المرحلة الثانوية والجامعية يتضمن منهجها منزلة العلم في الإسلام ووجوب طلبه مدى الحياة ، والتأكيد على أن الأمة التي خاطبها الوحي أول ما خاطبها بالأمر بالقراءة لن تفارق العلم ، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم.

إن خيرية الأمة الإسلامية مناطها الاعتصام بعقيدتها الراسخة فهي تكفل لها العزة والقوة لأنها تحض على طلب العلم بمفهومه الواسع دون توقف في مرحلة من مراحل العمر، والعلم عماد القوة ، والقوة في دنيا الناس عماد العزة ، وبذلك تكون للأمة الإسلامية الشهادة على غيرها من الأمم، وتكون بحق خير أمة أخرجت للناس .

